العدد ٨٢٥ — الاثنين ٢٥ أبريل ١٩٤٩ — السنة السابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

صفحة

أمم حائرة — فوضى الآراء والأعمال : لصاحب العزة الدكتور عزام بك ٧٦٥

مسرحية « سليمان الحكيم » للأستاذ توفيق الحكيم ... ... : بقلم الدكتور محمد القصاص ٧٦٧

السجل الأدبي ... ... : الأستاذ أحمد أحمد بدوي ٧٦٩

المنصف لابن وكيع المصري ... : الأستاذ السيد أحمد صقر ٧٧٢

حرمان ... ... : الأستاذ كامل محمود حبيب ٧٧٤

شعراء أسيوط ... ... : الأستاذ محمود رزق سليم ٧٧٦

تزال بين يدي الفرنسيين والطليان : الأستاذ أحمد رمزي بك ٨٨٠

« رسالة العلم » : انفصال الجو الأرضي من السفع الشمسية — لماذا اضطرب الراديو في العالم ؟ ٧٨٣ ٧٨٤

« تعقيبات » : مع الدكتور طه حسين في الفتنة الكبرى — دفاع مضحك عن السير ويلزم — حقوق المرأة المصرية بين الأنصار والخصوم ٨٨٥ ٧٨٧

« الأدب والفن في أسبوع » : عراك فكري بندوة « الرسالة » — كشكول الأسبوع ٧٨٨ ٧٩٠

« الكتب » : الموالي في العصر الأموي — تأليف الأستاذ محمد الطيب النجار : بقلم الدكتور محمد يوسف موسى ٧٩١ ٨٩١

« البريد الأدبي » : الفن بين الإبداع والاستمتاع — الفرة — سيف بن عمر المؤرخ — الشيخ مؤنثة — لبث العربية تزحف — القلم الصناع ٧٩٢ ٧٩٣

٣٢٠٣٤

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

كما أدركها منشئها ، ويمثل هذا التناول يخلد الأديب لحظة من لحظات شعور مرت به في حياته .

إن في الإنتاج الأدبي لعملا إراديا للأديب ، ذلك أنه يتناول تجربته ، وهي مكونة من أجزاء ، فيرتبها ترتيباً متسقا ، ثم يأخذ في إيضاح سلسلة خواطره واحداً واحداً ، على أن يكون لكل خاطر منها دخل في تصوير التجربة وإكمالها ، فيكون له وجود من أجل نفسه ، ووجود من أجل الكل الذي هو جزء منه ؛ وبجمع هذه الأجزاء تصير التجربة وحدة متسقة ، وكلا موحدا ، يتصل كل جزء فيها بسائر الأجزاء . أما إذا كان بعض الأجزاء لا دخل له في تكوين الصورة ، ولكنه جاء بطريق الاستطراد ، أو لم تكن التجربة سلسلة الخواطر ، يرتبط بعضها ببعض ، فإنها تنقل إلى السامع مشوهة لا صلة بين أجزائها ولا اتساق .

وهاك تجربة لقتيلة بنت الحارث وقد أخذت تعاتب الرسول لقتله أخاها النضر برغم قرابته له ، واتصاله بنسبه :

أمحمد يا خـــير صنو كريمة   في قومها ، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما   من الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أسرت وسيلة   وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه   لله أرحام هنـــاك تشقق

فقد بدأت حديثها معه تناديه باسمه نداء القريب الذي لا كلفة بينك وبينه ، مشعرة إياه بشدة الصلة بينهما حتى لكأنها توحي إليه بأن هذه القرابة القريبة ما كانت تنتظر على يده هذا المصير . ثم انتهت إلى مكانة الرسول في قومه ، فنادته واصفة بما يتفق مع هذه المكانة ، وكأن قلب الأم الذي في كل أنثى دفعها إلى أن تصفه بأنه خير ابن لأم كريمة في قومها ، وأب عريق في الشرف ، حتى إذا انتهت من استرضاء سمعه بهذا النداء أخذت تسأله سؤال الموجع الموقن بأن حكم القضاء قد تم ولا سبيل إلى استرجاعه ، فاستخدمت لذلك هذا الاستفهام الحزين الموحي بأنه لم يكن ثمت خطر في إطلاقه ، فضلا عما في هذا الإطلاق من مكرمة المن ، وأتت بكلمة (لو) المشعرة بالأسف لدلالتها على امتناع وجود الفعل . وما كان أدق ذوقها في اختيار كلمة ربما ، الدالة على حسن الأدب ، والتماسها العذر للرسول ، وتلميحها إلى ما في العفو برغم الغيظ والحنق من مثل أعلى جدير بالاقتداء ، حتى إذا انتهت من ذلك لمست من الرسول موضع العطف فذكرته بقربه منه واستحقاقه أن يظفر برعايته . ثم تنتقل من ذلك إلى تصوير هذا القريب الجدير بالود أو بالمن والعتق — هدفاً لسيوف أقربائه ، تتناوله بأطرافها فتمزق بتمزيق أديمه القرابة وتقطع أواصرها .

وهكذا كان كل جزء له أثره في نقل هذه التجربة التي ملكت نفس قُتيلة ، ونجحت في إيصال ألمها للسامع ، حتى روى أن الرسول بكى ، وقال : لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته .

نستطيع أن نسمي التجربة التي تسيطر على الأديب ، وتدفعه إلى التعبير عنها بالإلهام ، وكلما عظم هذا الإلهام احتاج إلى قوة كبيرة تستطيع التعبير عنه تعبيراً يمثله تمثيلا صادقاً ، ولهذا كان كبار الأدباء ذوي سلطان على اللغة ، وقدرة قديرة على التعبير ، فاستطاعوا أن ينقلوا إلينا من التجارب أعظمها وأسماها .

وإن لدى الأديب إحساساً لغوياً ممتازا ، يستطيع به أن يختار من الألفاظ ما هو قوي في تصويره ، واضح في دلالته على مراده ؛ ويدرك ما تستطيع الألفاظ أن توحي به إلى القارئ ، وإن للألفاظ لوسيا يشع منها ، فيملأ النفس شعوراً ، ويثير الوجدان ، ويحرك العاطفة ؛ ذلك أن الألفاظ قد تراكم حولها بمضي الزمن والاستعمال ، معان أخرى أكثر من هذه المعاني التي نجدها لها في القاموس ، فليس ما بين يدينا من معاني الألفاظ في المعاجم سوى هذه المعاني المتبلورة ؛ والأديب البليغ هو من يستنفد ما للألفاظ من معان أضفاها عليها الزمن ، فتثير في النفس أعمق الإحساسات ، وتملأ الخيال بشتى الصور . وإذا شئت فانظر في القاموس إلى معاني كلمات : أم ، وطفولة ، ومدرسة ، ووطن مثلا ، فالأم في اللغة هي الوالدة ؛ ولكن هذا اللفظ يثير في النفس إذا سمع أسمى معاني الحب ، وأقدس ألوان العواطف ، وأشرف آيات الإيثار ، وأعمق معاني الحنان .

وليست الطفولة سوى وقت الصبا في القاموس ، أما إذا سمعت فإنها تثير تلك الخواطر التي تحوم حول هذه الأيام النضرة ، وحول هاتيك الملاعب المزينة ؛ وكم ذكريات تثيرها المدرسة في النفس ، حول عهود محبوبة ، وآمال مرتقبة ، وأصدقاء مختارين ، بينما هي في المعجم مكان الدراسة .

أما كلمة الوطن فقد تراكم حولها من المعاني والذكريات ما أشار ابن الرومي إلى بعضه حين قال :

وحبب أوطان الرجال إليهم   مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم   عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

فلا عجب أن تثير كلمة الوطن في النفس هذه الذكريات العذبة المحبوبة. وإن أردت أن تدرك شدة وحي الألفاظ فاقرأ قوله تعالى: ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا؟ وانظر أي تقزز ونفور يثيره في النفس تخيل أكل لحم الأخ ميتا...

واقرأ قول الشاعر:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ   سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه، فحنا علينا   حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً   ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا   فيحجبها، ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى   فتلمس جانب العقد النظيم

وانظر ما توحي به إلى النفس (لفحة الرمضاء) فإنها تشعرك بهذا الهواء الساخن يلفح وجهك، ويومض عينيك، فتكاد تضع يدك على هذا الوجه، تحجب بها عنه هذه السخونة الممضة، وتحس كما أحس الشاعر بفضل هذا الوادي عليه، فقد حماه من وهج الشمس وسطوة الحر، فلا غرابة أن يدعو له من كل قلبه أن يسقيه مضاعف الغيث. وانظر ما توحي به إلى خيالك كلمة (دوح) من ظل ظليل، ونسيم بليل، تسكن إليه النفس بعد لفحة الرمضاء. وتخيل حنو المرضعات وما يثيره من معاني العطف والحنان. أما (أرشف) فتوحي إليك بهذه اللذة التي يحس بها الظمآن لفحة حر الشمس فأوى إلى ظل ظليل، وأخذ يشرب على مهل، ليستمتع بالماء الزلال، وكيف يجده حينئذ ألذ من المدامة. وتخيل كذلك ما يثيره عندك كلمة (يروع) والصورة التي ترسمها، وكلمة العذارى، وموضع الفاء التي تدل على هذه الحركة السريعة الناشئة من الروعة.

وهكذا استطاع الأديب بهذه الألفاظ الموحية أن يسيطر على خيالنا، وأن ينقل إلينا إحساسه وشعوره. ولعل هذا هو السر في أن علماء البلاغة قد كرهوا استعمال الكلمات الغريبة لأنها تعجز عن أن تثير في النفس معنى قبل البحث عنه، فضلا عن أن تثير هذه الخواطر التي تحيط بالكلمة إذا استعملت.

على أنه قد يشفع في بعض الأحيان لاستخدام الكلمة الغريبة أنها وضعت في موضع سهل الأسلوب فهمها، وكانت في جرسها موحية بمعناها، ولعل من ذلك قول شوقي:

خلوا الأكاليل للتاريخ إن له   يداً تؤلفها درا ومخشلبا(1)

فهذا الجمع بين الدر والخشلب يوحي بما بينهما من البون الشاسع، وفي حروف الكلمة الغريبة ما يوحي بأنها تعني شيئا حقيرا.

والإحساس اللغوي عند الأديب هو الذي يختار اللفظ اختياراً دقيقاً، بحيث يؤدي المعنى على وجه لا لبس فيه ولا اضطراب، وهو لذلك يلاحظ الفروق الدقيقة بين الكلمات ويأخذ من بينها أمسّها بمعناه، حتى تقوم بواجبها من التوصيل الصادق. سمع ابن هرمة أديباً ينشد قوله:

بالله ربك إن دخلت فقل لها   هذا ابن هرمة قائماً بالباب

فقال له: لم أقل (قائماً)، أكنت أتصدق؟ قال: (قاعداً)؟ فقال: أكنت أبول؟ قال: فماذا؟ قال: (واقفاً)، وليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى(2).

بل إن الإحساس اللغوي قد يرهف ويدق، فيختار من الكلمات ما يكون بين أصواتها وبين الموضوع ملاءمة، بحيث يكون فيها تقليد للشيء الموصوف، حتى كأنه يوحي به إلى الخاطر كما تحس بذلك في كلمة (أرشف) من الشعر السابق، وكما اختار المتنبي كلمة (تفاوح) في قوله:

إذا سارت الأحداج فوق نباته   تفاوح مسك الغانيات ورنده

فهي تدل بصيغتها على هذه الموجات النسيمية، تحمل في أردانها عبق المسك والرند، وكلمة صليل في قوله:

وأمواه تصل بها حصاها   صليل الحلي في أيدي الغواني

فهي تسمعك بحروفها وسوسة المياه تداعب الحصى.

وبعض ألفاظ اللغة أسلس على اللسان وأجمل وقعاً على الأذن من بعض، وهو جمال ظاهري يساعد الأديب على إيصال تجربته. وعلماء البلاغة يذكرون من صفات الألفاظ المفردة ما يصح أن تلتمسه هناك.

وفضلا عما للكلمات من خصائص يدركها إحساس الأديب كذلك النظم في العبارة الأدبية يحمل معنى أكثر مما تؤديه الجملة بجريها على النحو، فإن هناك نوى ينويها المؤلف فيها، من غير عمد حينا، وعن عمد حينا آخر، فتجده يقدم ويؤخر ويذكر ويحذف ويصل ويفصل، ويأتي ببعض ألوان المعارف دون بعض، وحينا

(1) الخشلب: الزجاج.
(2) الوقوف لا يقتضي الدوام والثبوت أما القيام فيقتضيهما.